﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: 123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كلُّ ما تعملونه الله محيطٌ به وسيُحاسبُكم عليه

بَعدَ أنْ قصَّ اللّه عَلى نبيّهِ ﷺ أخبارَ الأنبياءِ ﷺ معَ أقوامهمْ، وبعدَ أنْ طلبَ النَّبيّ ﷺ إلى الَّذينَ لا يُؤْمنونَ أنْ يَعملوا ما يريدونَ، وأنْ ينتظروا، وتَهدَّدهم وتوعَّدهم جاءتْ هذهِ الآيةُ لتُخبرَ النَّبيَّ صلَّى اللّه عليهمْ وسلَّم بأنَّ اللّه يَعْلمُ أمورَهَم وأحوالهَم[1]، وأنَّهُ قادرٌ عليهم وعلى مَنْ كان كَذلكَ من الأُمَم السّابقةِ، وأنّه إليه العبادة وعليه التّوكّل وله الأمر[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: الهمزة والميم والرّاء أصولٌ خمسةٌ: الأمْرُ من الأُمُورِ، والأمْرُ: ضدّ النّهي، والأمَرُ (بفتح الميم): النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ[3]، والأمْرُ: يأتي بمعنى المصدر من (أمَرَ)، ويأتي بمعنى الحادثة، والشّأن، والحال، وإذا أُسند إلى المولى ﷻ فإنّه يُفسّر بالقضاء، وبالتّصريف والتّدبير كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٤٧﴾ [النّساء: 47][4]، والأمْرُ: الشّأن وجمعه: أمور، وأمَرْتُه: إذا كلّفتَه أنْ يفعل شيئًا، والأمْرُ: لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال والأحوال كلّها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[5].

2) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تركِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/406.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/184.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمر)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/39.

الشّيءِ سهوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ، ومنه: غَفَلْتُ عن الشّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأغْفَلْتُه: إذا تركتَه على ذُكْرٍ منك له[1]، والغَفْلة: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذُّهولُ عن الشّيء، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَرَه[2]، والغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفُّظ والتّيقُّظ[3]، والغفلة: غيبةُ الشّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، وقد استُعمل فيمَنْ تركه إهمالًا وإعراضًا[4]، والمُراد في الآية موافقٌ للمَعْنى اللّغويّ؛ أيْ: وما ربُّك بساهٍ عمّا تعملون، بل هو محيطٌ به، لا يعزُبُ عنه شيء[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بمواصلة عـبـادةِ الـلـه في جميع الأوقات، والاعـتـمـادِ عليه في جميعِ الأحوال

يقول اللّه تعالى ذِكرُه مخاطبًا نبيَّه محمّدًا ﷺ، ومن خلالِه مُخاطبًا النّاس أجمعين: اعلَم أنَّ للّه مُلكَ كلِّ ما غابَ عنكَ في السَّمواتِ والأرضِ، ولهُ وحدَهُ علمُ ما غابَ مطلقًا في سماءٍ أو في أرضٍ أو في غيرِهما؛ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ، وهو عَظيمُ القُدرةِ نافذُ المشيئة، وكلُّ ذلك بيدِه، لا يَخفى عليهِ شيءٌ، وإليه وحدَهُ يرجعُ الأمرُ كلُّه، فما شاءَ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ، وإليهِ معادُ كلِّ عاملٍ وعملِه، وسيُجازيهم بأعمالِهمْ، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فاعبدْهُ كما أُمرتَ أنتَ والمؤمنونَ، وتوكَّلْ عليهِ في كلِّ أمورِكَ حقَّ التَّوكلِ، وثقْ به وبكفايتِه، وما اللّه بغافلٍ عمّا تعملونَ جميعًا - أيّها المؤمنون والكافرون - بل هو محيطٌ بكم، وسيُجازي كلًّا بما يَسْتَحقُّه في الدُّنيا والآخرةِ، وسيُحاسِبُ على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ علم الغيب للّه وحده لا يعلمه غيرُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (غفل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/545.

وأنَّ مردَّ الأمور كلِّها إلى الله بدْءًا وعودًا ونهايةً، وإلى وجوب عبادةِ الله تعالى والتَّوكُّل عليه. وتُرشد إلى أنَّ الأخذَ بالأسباب المشروعة لا يُنافي التّوكُّل على الله، ولذا أوجبه الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، وقوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15]، وأمر به الرّسولُ ﷺ بقوله لصاحبِ النّاقة: «اعقِلها وتوكّل»[1]، أي: اعقل ناقَتَكَ أوّلًا، ثم قُلْ: توكّلتُ على الله، وأنَّ التوكُّلَ لا يصحُّ بغير العبادة، والأخذِ بالأسباب المستطاعة، وإنّما يكون بدونهما من التّمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعة، كما أنَّ العبادة – وهي ما يُراد به وجهُ الله من كلِّ عمل – لا تكمُل إلّا بالتّوكُّل الّذي يكمُل به التّوحيدُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالةُ ما بعدَها في الآية:

عملُ الكافرين وفسادُهم لا يخفى على الَّذي له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأحد المعاني الآتية:

الأوَّلُ: استئنافيّة[3]، فالآياتُ السّابقةُ لمّا تحدثتْ عن أنباءِ الرُّسلِ وخطابِ الله تعالى للّذينَ لا يُؤْمنونَ[4] جاء الاستئنافُ لتكونَ هذهِ الآيةُ سُلْوانًا وطُمأنينةً للنَّبيِّ ﷺ.

الثّاني: عاطِفَةٌ؛ عطفتْ كلامًا على كلام[5]؛ لتكونَ الآيةُ كلامًا جامعًا، وتذييلًا للسُّورةِ، يُؤْذِنُ بختامها بعدَ مجموعةٍ من الجُملِ المتعاطفةِ.

(1) أخرجه التّرمذيّ، السُّنن، الحديث رقم: (2517)، وابن حبّان، صحيح ابن حبّان، الحديث رقم: (731)، وحسّن إسنادَه الألبانيّ، صحيح التّرمذيّ، الحديث رقم: (2517).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/163، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/270، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/591.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/294، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/77.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194.

الثّالث: اعتراضيّة في آخر الكلام[1]، جاءت معترضةً بين قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

معنى اللّام في ﴿وَلِلَّهِ﴾:

اللـه المالـكُ العالمُ هو وحدهُ الّـذي يُحاسبُ ويعاقبُ

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللّامُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ للمُلْكِ والاختصاص، وهذا المُلْكُ هو ملْكُ إحاطةِ العِلْم، يعني: أنَّ لله ما غاب عن علم النّاسِ في السَّموات والأرض، وهذا كلامٌ يجمع بشارةَ المؤمنين بما وُعِدوا من النَّعيم المُغيّب عنهم، ونِذارةَ المشركين بما توعَّدوهم به من العذابِ المُغيَّبِ عنهم في الدُّنيا والآخرة[2].

نكتةُ التقديم في ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾:

الغيبُ يُختصُّ بـه سبحانه، ومقصورٌ عليه وحدَه دون غيرِهِ

قُدّم المُسنَد ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المُسنَد إليه ﴿غَيْبُ﴾ في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأمورٍ؛ منها: الاهتمام بذكر اسمه سبحانه، وإفادة الاختصاص؛ أيْ: الله لا غيره يملكُ غيبَ السّموات والأرض؛ لأنّ ذلك ممّا لا يُشاركه فيه أحدٌ[3]، وإفادة القَصْر[4]، والمعنى: غيبُ السّموات والأرض مقصورٌ على الاتّصافِ بكونِه لله تعالى لا يَتخطَّى إلى غيرِه، فهو من قصر الموصوف على الصّفة[5].

فائدةُ الإضافةِ في الآية الكريمة:

كلُّ غيبٍ إنَّما هو لله ومختصٌّ به سبحانه

أضافَ الحقُّ سبحانَهُ الغيبَ إلى السَّمواتِ والأرض في قوله: ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليُعطي معنى الاستغراق، وهذه الإضافة من ألفاظِ العموم، فالغيبُ في الأصلِ مصدرٌ، وأُضيفَ إلى السَّمواتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/299.
(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241.

والأرضِ، فأفادَ أنَّ كلَّ غيبٍ ممّا فيهما مُختَصٌّ بهِ تعالى، فلا يعلمُ الغيبَ المُطلقَ الَّذي ليس له مُقدِّماتٌ تنبئُ عمّا سيحدثُ إلّا اللّه وحدَه ﷻ[1]، وأمّا الغيبُ النِّسبيُّ الَّذي يعرفهُ البعضُ ويغيبُ عن البعضِ، فهذا لا يدخلُ في مدلولِ هذهِ الآيةِ[2]، وتخصيصُ الغيبِ بالسَّموات والأرض، وذِكرهما دون سواهما مع أنَّ المُراد غيبُ جميع ما يتعلّق بهما، كما يُؤذِن به قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: 255]؛ لأصالتهما واستتباع ما سواهما لهما، ولأنَّهما المُشاهدان للمخاطَبينَ.

معنى (أل) في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

غيبُ السَّمواتِ والأرضِ بكلِّ ما فيهما في علم اللهِ ﷻ

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تُفيدُ العمومَ؛ لتشملَ جنسَ السَّمواتِ السّبع وبما فيها، وما فوقها وما تحتها[3]، وتشمل الأرضَ كلَّها، وكلّ ما فيها[4]، فعِلمُ اللّه تعالى محيطٌ بكلّ ما في السّموات وما في الأرض وما بينهما وما وراءهما.

ولأنّ المُراد بالسّموات والأرض جنسهما صحَّ عطفُ الأرض على السّموات، مع أنَّ السَّموات جمعٌ، والأرضَ مفردٌ، والأوْلى في لغة العرب أنّه لا يصحُّ عطفُ مفردٍ على جمعٍ، ولا جمعٍ على مفردٍ، فكان عَطْفُ الأرض على السّموات هو عطفُ جنسٍ على جنسٍ لا عطفُ الجمعِ على المفرد، حتّى يلزمَ تركُ الأوْلى من رعايةِ التَّطابق بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ[5].

نُكتة التقديم في قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

قُدِّمت السَّمواتُ على الأرضِ لأنَّها أعظمُ شأنًا وأكبر سلطانًا وأظهرُ نظرًا وأكثرُ عبرًا

من عادة القرآن أن تُقدَّم السَّمواتُ على الأرضِ، ولا تتقدّم الأرضُ على السَّموات إلّا استثناءً، ومن حِكَم تَقديم السَّموات على الأرضِ:

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/468، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6794.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/103، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/140، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3592.
(5) حقّي، روح البيان: 5/363، والهرريّ، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 17/256.

الأولى: شرفُ السَّموات بالفضيلة؛ لأنَّ مُلكَها أعظمُ شأنًا وخَلقًا، وأكبرُ سُلطانًا، فهي أكثرُ عِبرًا وأظهرُ نظرًا، فيما يرى العباد، ولأنَّها مُتعبَّدُ الملائكة المُقدّسين على تفاوت مراتبهم، ولا يحصل فيها المعاصي والمُنكرات، وهي قِبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، وغير ذلك، وأمّا الأرض وإنْ كان فيها الأنبياء، فقد وقعت فيها المعاصي، واحتوتْ على الأشرارِ والمفسدين[1]، فالسَّموات أشرفُ من الأرض ذاتًا وصِفَةً[2].

الثّانية: سبقُ خلقِها على خلقِ الأرضِ[3]؛ فقُدّمت السَّموات على الأرض مراعاةً لترتيب الوجود.

الثّالثة: مراعاةُ السّياق، إذِ الكلامُ عن علم الله تعالى للغيب، فإحاطةُ علمه بغيبِ السّموات أعظمُ من علمهِ بغيب الأرض.

وجهُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جمعُ السّمواتِ أتى تفخيمًا وتشريفًا وتخفيفًا

الأصلُ عند العرب أنَّه في النّصوص المتعدِّدة أنْ تكونَ المؤاخاةُ بين الألفاظ، وهذا من محسِّنات الكلام، فإذا جُمع أحدُ المتقابلَيْن أو نحوهما؛ ينبغي أنْ يُجمَع الآخرُ؛ إلّا لحكمةٍ تقتضي هذا العدولَ، والنّاظر في جمع السَّموات، وإفراد الأرض في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يرى حِكمًا كثيرة، منها:

الأُولى: أنَّ السَّمواتِ أشرفُ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيد[4].

الثّانية: لأنَّ طبقاتِها مختلفةٌ بالذّات، متفاوتةٌ بالصّفات والآثارِ والحركاتِ، وأمّا الأرض فهي من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، فإذا أراد طبقاتِها أو أقسامَ سطحِها فإنَّه يذكُرها بما يدلُّ على الجمع[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/468.
(3) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/83، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/255.
(4) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/92.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

الثّالثة: أوامرُ الله إلى الأرض تخترق جميع السَّماوات السّبع، فكان التّعدّد والإفراد متناسقًا مع الوحي، واتّصال السَّماء بالأرضِ[1].

الرّابعة: تعدّد السّموات كان مقرَّرًا عندَ المخاطَبين بناءً على مشاهدتهم تعدُّد حركاتِ الكواكبِ بخلاف الأرضِ، فإنَّ تعدُّدَها لم يثبُت إلّا بالشَّرع، والاسْتدلالُ إنَّما يكون بما هو معلومٌ عندهم[2].

الخامسة: تخفيفًا، إذْ جمعُ الأرضِ (أرضون، أرضين) ثقيلٌ ومخالفٌ للقياس، وهو ملحقٌ بجمع المُذكَّر السّالم، ولهذا لم تُجمَع الأرْضُ في القرآن، ولمّا أُريد ذِكْر جميع الأرضين قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12][3].

السّادسة: لأنّ السَّماءَ جاريةٌ مجرى الفاعلِ، والأرضَ جاريةٌ مجرى القابلِ[4]، فلو كانت السَّماء واحدةً لتشابَه الأثرُ، وهو يُخلُّ بمصالح هذا العالم، وأمّا الأرضُ فهي قابلةٌ، والقابلُ الواحد كافٍ في القبول.

فائدة الجملةِ الخبريّةِ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾:

التّوبيخُ للكافرينَ والفَخرُ والاعتزازُ للمؤمنينَ

الأصلُ في توجيه الكلام الَّذي يَتَضمَّن خبرًا أنْ يكون الغرضُ منه الإعلامَ بالخبرِ الَّذي دلَّ عليه الكلامُ، وإفادةَ المخاطَبِ بمضمونه[5]، وقد أخبر الله ﷻ في هذه الجملة عن كمال علمه، وأنّه عالمٌ بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية، فله غيبُ السّموات والأرض دون غيره، كما أنّها أفادتِ التَّوبيخَ للَّذين لا يؤمنون، وإظهارَ الفخر والاعْتزاز والثِّقة للنَّبي ﷺ وأُمّته.

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/92.
(2) المَظْهَريّ، التّفسير المَظْهَريّ: 1/160.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/355.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(5) حسن، بلاغة اللّغة: 1/173.

غرضُ العطف في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ﴾:

إذا كـانَ الغيبُ لله فإنَّ الأمرَ كلَّه إليهِ سبحانَهُ

جاء عطفُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ على قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ليُفيد المشاركة بين اختصاصِ الله ﷻ بعلم غيب السّموات والأرض، وبين رجوعِ الأمر إليه، فلهُ سبحانه غيبُ السّموات والأرض، وإليه يرجعُ الأمرُ كلّه، وليكون قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ نتيجةً لقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فإنّ مَنْ كان غيبُ السَّموات والأرضِ له؛ فإنَّ مرجعَ الأمور كلِّها يكون إليه، وقد أعطى هذا العطفُ طمأنينةً وتسليةً للنَّبي ﷺ[1].

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

حـــصـــرٌ واخـتـصـاصٌ في رجـــوعِ الأمـــورِ إلى الـلـه وحـده سبحانه

البلاغة في تقديم المُسند (شبه الجملة) ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ - على المُسنَد إليه الفعل ﴿يُرۡجَعُ﴾ تظهر في الاختصاصِ والحصْرِ برجوعِ الأمرِ كلِّه إلى الله، وليس لأحدٍ سواهُ، فيرجعُ لا محالةَ أمرُهم وأمرُك إليهِ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك فإنَّه كافيكَ[2]، ولو لم يكن تقديمُ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لصار المعنى: أنَّ الأمرَ يرجع إلى الله وإلى غيرِ الله، فاشتركَ غيرُه معه في رجوعِ الأمر إليه، تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا.

بلاغة توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّة في ﴿يُرۡجَعُ﴾:

الأمورُ كلُّها تصيرُ إلى الـلـه وتُـردُّ إليه سبحانه

قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بضمِّ الياء وفتح الجيم؛ أيْ: لم يُسمَّ فاعلُه، وقرأ الباقون وشُعْبة عن عاصم (وإلَيْهِ يَرْجِعُ الأمْرُ) بفتح الياء وكسر الجيم؛ أيْ: المَبْنيّ للمعلوم[3]، وفي توجيه القراءات يظهرُ أنّ المعنى في قراءة ضمِّ الياء: أيْ: يُرَدُّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6799.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 1/242.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 340، وابن الجزريّ، النّشر: 2/209.

الأمرُ كلُّه إليهِ، والمعنى على قراءة فتح الياء: أيّ: يَصيرُ الأمرُ إليه، وحُجّتهم قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشّورى: 53]، ولم يَقُل: (تُصار)[1]، يقول ابن خالويه: "والأمر بينهما قريبٌ؛ لأنَّ الأمرَ إذا رُدَّ إلى الله رَجع هو، كما تقول: أجلستُ زيدًا فجلس هو، وأدخلَه الله الجنَّةَ فدخلَ هو"[2].

وفي اجتماعِ القراءتيْن إثراءٌ للمعنى، وتحقيقٌ بلاغة الوفاء بالمعنى مع الإيجاز في اللّفظ.

ويكون إعرابُ لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ على القراءة الأُولى - ضمّ الياء في (يُرجع) - : نائب فاعل، وعلى القراءة الثّانية - فتح الياء في (يُرجع) - : فاعل.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

إليه سبحانه ترجعُ كلُّ الأمور

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ دخلت (أل) التَّعريف على كلمة الأمر؛ لتشملَ كلَّ أمر؛ لأنَّها (أل) الجنسيَّة، فإذا دخلتْ على الاسم أفادتْ العمومَ، وشملتْ كلَّ أفرادِ الأمر وأنواعه[3].

بلاغة الاستعارةِ في إسنادِ الرُّجوعِ إلى الأمرِ:

لا يرجعُ الأمرُ إلّا إلى المؤثِّر الحقيقيِّ فيه

أسند النَّصُ القرآنيُّ الرُّجوعَ إلى الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾، وهذا لا يكون على سبيل الحقيقة؛ فالأمر لا يرجع، وليس له إرادة، إنَّما استعملَ القرآنُ ذلك على سبيلِ الاستعارة، وهي استعارةٌ تمثيليّةٌ مكنيّةٌ، ويمكن أنْ تُحمل هذه الاستعارة على واحدٍ من الأمريْن:

الأوَّل: أنّه شبّه هيئةَ عجزِ النّاس عن التَّصرُّف في الأمورِ حسب رغباتهم بهيئةِ متناوِلِ شيءٍ للتَّصرُّف به لا يستطيع التَّصرُّف فيه، فيُرجعه إلى الحَريِّ بالتَّصرُّف به.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/46.
(2) ابن خالويْه، إعراب القراءات، ص: 174.
(3) أبو حفص النَّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/195.

الثّاني: أنَّه شبّه هيئةَ خضوعِ الأمورِ إلى تصرُّف الله دون تصرُّف المحاولين التَّصرُّفَ فيها بهيئة الباحث عن مكانٍ ليستقرَّ به، ثمَّ يأوي إلى المقرِّ اللّائق به، ويرجع إليه[1].

وعلى كلا التّفسيريْن فالمُشبّه هو الأمر، والمُشبَّه به هو شخصٌ له رجوع، وقد حَذفَ النَّصُّ القرآنيُّ المُشبَّه به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو الرّجوع؛ فالاستعارة مكنيّة.

فائدةُ توكيدِ الأمرِ بـ ﴿كُلُّهُۥ﴾:

كلُّ أمرٍ مرجعُه إلى الله تعالى وحده دون سواه

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ معرَّفةً بأل الجنسيَّة لتُفيد العمومَ، ثمَّ أكَّدَ النَّصُّ القرآنيُّ هذا العمومَ بتوكيدٍ معنويٍّ، وهو لفظ: ﴿كُلُّهُۥ﴾ الذي هو من أقوى صيغ العموم في اللُّغة العربيَّة، وأوضحها وأوسعها، فأكّدت أنَّ كلَّ الأمر يرجع إلى الله سبحانه، وكذلك أكّدت معنى الحَصرِ في رجوع الأمر إلى الله وحده دون سواه[2].

غرضُ جملةِ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾:

مَنْ ترجعُ جميعُ الأمورِ إليه هو مَنْ يعلمُ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ

أفادتِ الجملةُ الخبريّة ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ إخبارَ المخاطَبين بأنّ كلّ أمرٍ يرجعُ إلى الله وحده دون سواه، كما أنّها أتتْ نتيجةً لقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإنّ مَن يعلم غيبَ السَّموات والأرضِ يكون مرجعُ الأمورِ كلّها إليه، بالإضافة إلى ما تحمله من معاني التَّعريض والتَّهكّم بأولئك الَّذين عبدوا غيرَ الله، وجعلوا معه شركاء؛ والتّسلية والطّمأنينة للنّبيّ ﷺ وللمؤمنين[3].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾:

كونُ الغيبِ والأمرِ لله وحده يستلزمُ أنْ تكونَ العبادةُ له دون غيره

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ تحتمل معنيين:

الأوّل: العطف، وفيها معنى التَّرتيب والتَّفريع والسَّببيّة، جاءتْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.

لترتّب الأمر بالعبادةِ على كونِ مرجع الأمور كلِّها إلى الله تعالى؛ لأنَّه صاحبُ الأمرِ فيما مضى؛ وله الأمرُ الآن؛ وله الأمر فيما يأتي[1]، "وتفريعُ أمرِ النّبيّ ﷺ بعبادة الله، والتّوكّل عليه على رجوع الأمر كلّه إليه ظاهرٌ؛ لأنّ الله هو الحقيق بأنْ يُعبد وأنْ يُتوكَّل عليه في كلِّ مهمٍّ، وهو تعريضٌ بالتَّخطئةِ للَّذين عبدوا غيره، وتوكَّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها[2]، ومعنى السّببيّة في الفاء[3]، أنّ مَن له غيبُ السّموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كلّه لا لغيره يستلزم أنْ تكونَ العبادة له دون غيره، فالإنسانُ يدورُ في فلكِ الزَّمان الَّذي هو بيدِ الله سبحانه، يخضعُ لقدرةِ الله وعلمه ومراقبته، فكان لزامًا أنْ يمتثلَ ويعبدَ وفقَ ما يأمر الله سبحانه ويريد.

الثّاني: فصيحة، وهي رابطةٌ لجوابِ شرطٍ مُقدّرٍ[4]، والتّقدير: إذا كان لله غيب السّموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلُّه؛ فاعبده وتوكّل عليه.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾:

الله الحقيقُ بأنْ يُعبدَ وأنْ يُتوكَّل عليه

عبَّر البيانُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ بفِعْلي الأمر ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ و﴿وَتَوَكَّلۡ﴾، وهو أمرٌ حقيقيّ، وخطابه إلى النّبيّ ﷺ، ويشمل أمّته لأنّهم داخلون مع النّبيّ ﷺ فيما خُوطب به[5]، ويُفيد هذا الأمر وجوبَ فعلِ المأمور، وهو توحيدُ الله بالعبادة والتّوكّل عليه، والمعنى: وحِّد الله عبادةً لا شوبَ فيها، وتوكّلْ معتمدًا في أمورك كلّها عليه[6]، فهو الحقيق بأنْ يُعبد وأنْ يُتوكّل عليه في كلّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/249، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/294، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6798.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/195.
(3) صالح، الإعراب المُفصَّل: 5/261.
(4) صافي، الجدول: 12/373.
(5) الزّركشيّ، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/257.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/407.

مُهمٌّ؛ لأنّ أمرَ النّبيّ ﷺ بعبادة الله، والتّوكل عليه هو تفريعٌ على رجوع الأمر كلّه إليه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾، ومَن يرجع إليه كلُّ أمر لا يُعقل أنْ يُصرَفَ شيءٌ من العبادة ولا من التّوكّل إلى غيره[1]، فالتّوكُّلُ لا يصحُّ بغير العبادة، والأخذِ بالأسباب المستطاعة، وإنَّما يكون بدونهما من التّمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعة، كما أنَّ العبادة – وهي ما يُراد به وجهُ الله من كلِّ عمل – لا تكمُل إلّا بالتّوكُّل الّذي يكمُل به التّوحيدُ[2].

ويمكن أن يُفيد الأمر معنى الزّيادة أو الثّبات على العبادة والتّوكّل، كما يتضمّن هذا الأمر الدّوامَ على العبادة والتّوكّل، والتّعريضَ بالتّخطئة للّذين عبدوا غيره وتوكّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها[3].

نكتةُ عطفِ التّوكّلِ في الآية:

عطفَ البيانُ الإلهيُّ التّوكلَ على العبادةِ في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ لجامع أنَّ كلًّا منهما يوصلان العبدَ بالله، وليُعطيَ معنًى مُهمًّا، وهو أنَّ العبادةَ مقترنةٌ بالتَّوكُّل على الله، لا ينفصمان ولا ينفكّان، فعبادةٌ بلا توكُّلٍ لا تنفع، وتوكُّلٌ من غير عبادةٍ تواكلٌ ولا أثرَ له، فالأسبابُ وحدها لا تنفعُ من غير الاعتمادِ على الله ﷻ، والعكسُ كذلك، وهذا هو وجه التّغايرِ بينهما.

التّوكّل الحقُّ لا يكون إلّا من العابدِ الحقِّ

نكتة تقديم الأمر بالعبادة في الآية:

في تقديم الأمر بالعبادة على الأمر بالتَّوكُّل في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ لفتةٌ مهمّةٌ، وهي أنّ الإنسانَ إنّما ينفعهُ التَّوكُّل إذا كان عابدًا لله، فالتَّوكُّل من غير عبادةٍ قَبْله لا ينجع[4]،

أُولى درجاتِ السَّيرِ إلى الله تعالى العبوديَّةُ لله، وآخرُها التَّوكُّلُ عليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/1965.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/163.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/242.

قال الآلوسيُّ: "وفي تأخير الأمر بالتَّوكُّل عن الأمر بالعبادة تنبيهٌ على أنّ التَّوكُّلَ لا ينفع دونها؛ ذلك لأنَّ تقدُّمه في الذِّكر يُشعِر بتقدُّمه في الرُّتبةِ أو الوقوع... لأنَّ المُرادَ من العبادةِ: امتثالُ سائرِ الأوامرِ من الإرشادِ والتَّبليغ وغيرِ ذلك، ومن التَّوكُّل: التَّوكُّل فيه؛ كأنّه قيل: امتَثِلْ ما أُمرتَ به وداوِمْ على الدَّعوة والتَّبليغ، وتوكَّلْ عليه في ذلك، ولا تُبالِ بالّذين لا يؤمنون، ولا يَضِقْ صدرُك منهم"[1].

وحاصلُ الكلام أنَّ أوّل درجات السَّيرِ إلى الله تعالى هو عبوديَّة الله، وآخرها التَّوكّل على الله، فلهذا السَّبب قال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[2]، يعني أنَّ مَنْ كان كذلك كان مُستحِقًّا للعبادةِ لا غيرَه؛ فاعبدْهُ ولا تشتغلْ بعبادةِ غيرِه، وتَوكَّلْ عليهِ يعني: وثِقْ به في جميع أمورك؛ فإنَّه يكفيكَ[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾:

الواوُ بينَ العطفِ والاستئنافِ والحالِ

في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّل: أنَّها عاطفةٌ، فقد عطفتْ كلامًا على كلام، والجُمَل كلُّها من بداية الآية متعاطفةٌ على بعضِها[4]، فاشتركت في توجيه الخطاب إلى النّبيّ ﷺ، وتغايَرَتْ في معانيها.

الثّاني: استئنافيَّة[5]، وتكون الجملة بعدها مستَأْنَفةً، لا محلَّ لها من الإعراب.

الثّالثُ: حاليَّة؛ جاءتْ تذييلًا في محلِّ الحال[6]، والمعنى: إنْ كان هؤلاء المشركون يفعلون ما يفعلون، ويضيقُ صدرك منهم؛ فاعبدْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/360.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/414.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/509.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/196.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/74، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/77.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/566.

ربَّك، وتوكَّل عليه، وحالهُ أنَّه لا يغفلُ عنْ شيءٍ ممّا تعملون؛ سواء أعمال المشركين وصنيعهم، أو عبادة المؤمنين وتوكُّلهم، ومجيءُ الجملةِ حاليّةً أفادت توكيد المعاني السّابقة بأنّ مَن له غيبُ السّموات والأرض، وإليه يُرجع الأمر كلّه ليس بغافلٍ عمّا تعملون.

الغرض البيانيُّ من تقديم النَّفي:

لا تهديدَ ولا ترغيبَ أبلغُ من كونه لا يَعزُب عن علمه شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماء

أفاد تقديم النّفي ﴿وَمَا﴾ على المُسند إليه ﴿رَبُّكَ﴾ والمُسند الفعليّ؛ وهو الخبر الّذي جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ تخصيصَ هذا النّفي، فالله وحده لا يغفل وغيره يغفل، وفي هذا التّخصيص: تهديدٌ وترغيبٌ؛ أيْ: وما ربك بغافلٍ عمّا تعمل أنت أيّها النّبيّ ومَن اتّبعك من المؤمنين من عبادته، والتّوكل عليه والصّبر على أذى المشركين، فيوفّيكم جزاءكم في الدّنيا والآخرة، وعمّا يعمل المشركون من الكيد لكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وسيجزيهم على أعمالهم يوم تُجزى كلُّ نفس بما كسبت[1].

نكتةُ المجيء بلفظِ ﴿رَبُّكَ﴾:

ربُّك المحسنُ إليك لا يغفلُ عن شيء؛ فاطمئنّ أيّها النّبيّ العابدُ المتوكّل

أتى البيانُ القرآنيّ بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ - الّذي يدلُّ على الملْك والتّربية والرّعاية والعناية - دون لفظ الألوهيّة، فلم يَقُل: (وما الله بغافل) مناسبةً للمعاني المتقدّمة من ملكِ الله للغيب، ورجوعِ الأمر الّذي يجعله سبحانه حقيقًا بالعبادة من المَربوبين، وكذلك مناسبةً لتكرار لفظ الرّبوبيّة ثلاث مرّات في آيتيْ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، و﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

وفي إضافة الرّبوبيّة إلى ضميرِ النَّبي ﷺ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ تعظيمٌ وتشريفٌ وطمأنينةٌ للنّبيّ ﷺ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وملكَ أمرَ النّاسِ، ومَنْ أمَرَكَ بعبادته والتَّوكُّل عليه هو

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ، 12/102.

مربِّيَكَ بفضله ورحمته وعلمه وحكمته[1]، وهو كفيلٌ لك، ومدبِّر أمرِك، وناصرُك على أعدائِك، ومُجازيك بحُسنِ عملِكَ الَّذي لا يغفلُ عنه، ولا تخفى عليه خافية، فبقدر ما فيها من سلوانٍ للنَّبيّ ﷺ، وحسنِ اتّصالٍ بالرّبِّ ﷻ بقدرِ ما فيها من تهديدٍ ووعيدٍ وتربُّصٍ بأعمالِ المُشركين والمُكذّبين للنَّبي ﷺ[2].

معنى الباء في ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ الباء للتّوكيد، والاسم بعدها مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا على أنَّه خبر ﴿وَمَا﴾ الَّتي تعملُ عمل (ليس)، وقد أفادت تقرير النَّفيِّ بالجحدِ والإنكارِ[3].

نكتة التَّعبير بالغفلة في الآية:

نفيُ الغفلةِ عن الله ثابتٌ ودائمٌ، فلا يغيبُ عنه شيءٌ لا سهوًا ولا عمدًا

اختارَ البيانُ القرآنيُّ مادّة الغفلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ للتّعبير عن إحاطة علم اللّه تعالى، وعدم غفلته سبحانه؛ وذلك لأمريْن:

الأوّل: لأنّ مادّة الغفلة أوسعُ دلالةً؛ فأصلُ مادة (غَفَلَ) تدلُّ على تركِ الشّيء سهوًا، وربما كان عن عمد[4]، ومن معاني الغفلة: الذّهولُ عن الشّيء، ومتابعةُ النّفسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ عن الشّيء: ستَره[5]، والغفلةُ: غيبةُ الشّيءِ عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكّره له، وقد استُعمل فيمَن تركه إهمالًا وإعراضًا[6]، فالغفلة: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ[7]، كما أنّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا تقول: كنتُ ساهيًا عن فعلِ فلان[8].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/328.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6804.
(3) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ، ص: 190.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (غفل).
(7) الرّاغب، المفردات: (غفل)، والفيرزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/140.
(8) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 388.

فالغفلةُ أعمُّ من النّسيانِ ومن السّهو، ولهذا اختارَ القرآنُ الغفلةَ دون غيرها من الألفاظ المقاربة.

الثّاني: لأنّها أنسبُ للسّياق، فالسّياق في نفيِ الغفلةِ بكلّ معانيها عن اللّه سبحانه الّذي يُحيط علمه بكلّ شيء؛ فهو سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ لا سهوًا وإهمالًا، ولا عمدًا وإعراضًا، ولا يذهلُ عن شيء فينساه ولا يتذكّره، ولا يسترُ شيئًا من الأعمالِ بأنْ يُغفلهُ ولا يجازي صاحبَه عليه، كما أنّ الغفلةَ هنا عمّا يعملونه من أعمال؛ أيْ: عن فعلِ الغير؛ فتناسب اختيار الغفلة.

وأمّا من حيث صيغتُها، فقد جاءتْ بصيغة اسم الفاعل (غافل) الّذي يدلُّ على الثّبوت والدّوام؛ أيْ: إنّ نفيَ الغفلة عن اللّه سبحانه ثابتٌ ودائمٌ، فعِلمهُ محيطٌ بكلّ شيء لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّموات، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

نكتة تنكير ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

أحاط بكلِّ شيءٍ عِلْمًا ولا يغيبُ عنه شيء

نكّر البيانُ القرآنيّ لفظ ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾؛ لإفادة العموم، إذ النَّكرة في سياق النَّفي من صيغ العموم، وبالتّالي فلا يعتريه ﷻ أيُّ غفلةٍ مهما كانت يسيرة، وجاءتِ الباء قبلها لتزيد العموم عمومًا، وتُضيف على المعنى بيانًا وإيضاحًا.

معنى (ما) في قوله: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

علمُ الله محيطٌ بكلّ شيء لا يغيبُ عنه أيّ عملٍ مهما كان

معنى (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الّذي) وقد أفادت العموم؛ لأنّ اسم الموصول من ألفاظ العموم، والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ ليس بغافل عن أيِّ عملٍ من الأعمالِ الّتي يقوم بها الإنسانُ، مهما كان نوعُ هذا العمل، قولًا أو فعلًا أو نيّةً، أو ظاهرًا أو باطنًا، أو صالحًا أو فاسدًا، وهذا من إحاطة علمه بكلّ شيء سبحانه، كما أنَّ (ما) فيها إبهامٌ فسّره صلةُ الموصول بعدها، وفي مجيئها مبهمةً تشويقٌ لمعرفة المُبهَم.

الموقع النَّحويّ لجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

جملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلةُ الموصول لا محلَّ لها من الإعراب، حيث أتتْ لتُعرّف الاسم الموصول (ما) وتُتمّ معناه، وتُبيّن المقصود منه، إذ الاسمُ الموصول مبهمٌ يحتاجُ إلى توضيحِ المُرادِ منه، كما أنّ مجيءَ الموصول مع صلته في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنّ عدمَ غفلته عن أيِّ عمل أنّه يُعطي كلّ عامل جزاء عمله؛ إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشرّ، ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل، ولم يُعلّق بالذّوات، فلم يَقُل: وما الله بغافلٍ عنكم؛ إيماء إلى أنَّ على العمل جزاء، وهذا الجزاء يكون على ما يصْدر عن المُكلّف من عمل[1].

الجزاءُ يكونُ على ما يصدرُ عن المكلَّفِ من عملٍ

نكتة التَّعبير بـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيّ بـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأمريْن:

الأوّل: من حيث المادةُ، إذ (عمل) يعمُّ أفعال القلوب والجوارح[2]، والعملُ: هو كلّ فعلٍ يكون بقصدٍ، ولا يُقال عنه عملٌ إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرن بالعلم[3]، فهو أخصّ من الفعل[4].

علمُ الله يشملُ عملَ القلوبِ والجوارحِ، وجزاؤهُ على ما كان عن قصدٍ ومن مكلّفٍ

الثّاني: لمناسبة السّياق، إذ إنَّ السّياقَ في إحاطةِ علمِ الله بكلّ ما تعملون؛ والجزاء على هذه الأعمال، وعلمُ الله تعالى محيطٌ بكلّ ما يكون من الإنسان من أحداثٍ، سواء كانت نيّةً أو قولًا أو فعلًا، فالنيّاتُ عملُ القلوب، والأقوالُ عملُ اللّسانِ، والأفعالُ عملُ سائر الجوارحِ، والعملُ يشملها كلّها[5]، كما أنّ الجزاءَ يكون على ما صدر عن المكلّف بقصدٍ وعن فكرٍ ورَويّة، وهذا يناسبه التّعبير بالعمل دون الفعل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/196.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4332.

إضافةً إلى مناسبةِ ورود لفظ العمل في الآية الّتي قبلها: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

وأمّا من حيث الصّيغةُ: فقد آثر التّنسيقُ القرآنيُّ صيغةَ المضارع؛ لإفادةِ تجدُّدِ مضمونِه وتكرُّره[1]؛ أيْ: إنّ عِلمَ الله سبحانهُ محيطٌ بكلّ عملٍ متجدّدٍ منكم لا يغفلُ عن أيِّ عمل.

بلاغة القراءاتِ القرآنيّة في: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في القراءتين جمالٌ في تنوّع الخطاب وإثراءٌ في المعنى من ترغيبٍ وترهيبٍ

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتّاء، وقرأ الباقون من القراء العشرة: (بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُوْنَ) بالياء[2].

وجهُ القراءة بالتّاء ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: أن الخطاب يكون للنّبيّ ﷺ، ولجميعِ النّاس معه في الخطاب، مؤمنِهم وكافرِهم[3]، والمعنى: أنَّ الله لا يفوته شيءٌ من أعمال العباد، وأنّه يجزي المحسنَ بإحسانِهِ والمسيءَ بإساءتِهِ، فتكون قراءةُ التّاء أعمَّ من الياءِ[4].

ووجه القراءة بالياء (يَعْمَلُونَ): "يعود الضّمير إلى الكُفّار، فهو تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، وتهديدٌ للمشركين"[5].

وفي القراءتيْن تنوّعٌ في الخطابِ من عمومٍ وخصوص، أدّى إلى ثراءِ المعنى واتّساعه، فعلى قراءة التّاء الخطابُ عامٌّ للجميع، وعلى قراءة الياء الخطابُ للكفّار، وفي كِلتا القراءتيْن ترغيبٌ وترهيب.

بلاغةُ التّذييلِ في آخر الآية:

خاتمةٌ جامعةٌ وافيةٌ فيها تهديدٌ ووعيدٌ، وفيها طمأنينةٌ وتأييدٌ

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ختمَ البيانُ الإلهيّ السّورةَ بهذه الآية بخاتمةٍ جامعةٍ ساميةٍ؛ فهي كلامٌ جامعٌ جمعتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/89.
(2) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 340، والفارسيّ، الحُجّة: 4/389، وابن الجزريّ، النّشر: 2/162.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/360.
(4) الفارسيّ، الحُجّة: 4/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/196.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/196.

كلَّ مطالب الخير، فهو تذييلٌ للسّورة مؤذنٌ بختامها[1]، حيث خُتمتْ بما بُدئتْ به بالتّوحيد والرّجعة إلى اللّه في نهاية المطاف؛ ليلتقي جمالُ التّنسيق في البدء مع الختام[2]، حيث جاءتْ لتقرير الحقائق الاعتقاديّة الأساسيّة والثّابتة في كلّ رسالةٍ من الرّسالات السّماويّة، والّتي جاءتْ في هذه السّورة على لسانِ الأنبياء من خلال قصصهم، والّتي كان الهدفُ منها تثبيتَ قلبِ النّبيّ ﷺ، فكانتْ هذه الآية كالخلاصة والنّتيجة لِما تقدَّم في السّورة، ولتأكيد أنَّ للّه دون غيره غيبَ السّموات والأرض؛ ومرجعُ الأمور كلّها إليه، وعِلمُهُ محيطٌ بكلّ ما عملوه وما سيعملونه؛ ممّا أعطتْ زيادة تطمينٍ لقلبه الشّريف ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِعْل والعَمَل والصُّنْع والجَعْل والخَلْق:

العملُ أخصُّ من الفعل، والصّنعُ أخصُّ منهما، والجَعلُ تصييرٌ، والخلقُ تقديرٌ وإبداع

يوجد تقاربٌ دلاليٌّ بين هذه الألفاظ، وقد يُعرّف أحدها بالآخر، كما في لفظ (عمل) و(فعل) إذ عرّف ابن فارس الفعل: بأنّه إحداث شيء من عملٍ وغيرِه، والعمل: بأنّه عامٌّ في كلّ فعلٍ يُفعل[3]، كما يُستعمل أحدها مكان الآخر في بعض المواضع، إلّا أنّه عند الرّجوع إلى المعنى اللّغويّ، والاستعمال القرآنيّ وإمعان النّظر في معانيها يتبيّن أنّ لكلّ منها ما يميّزه عن الآخر، وبيان ذلك:

الفعل: الفاء والعين واللّام أصلٌ صحيح يدلُّ على إحداث شيءٍ من عملٍ وغيره[4]، والفعل: التّأثير من جهة مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غير إجادة، بعِلمٍ أو غير عِلم، وبقصْدٍ أو غير قصْد، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجمادات[5]، ويُستعمل الفعل في كلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/186.
(2) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 5/454.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمل)، (فعل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).
(5) الرّاغب، المفردات: (فعل).

ممارسةٍ عمليّةٍ تتطلَّب قوَّةً زائدةً تتمثَّل في تحمُّل المشقَّة أو التَّأثير أو الجدّ؛ أيّ: كلُّ عملٍ فيه زيادة جدّ، ويُستعمل في الأحداث العنيفة، كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشّعراء: 19]، وفي التّنفيذ الجادّ الّذي لا فتور ولا تساهل فيه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 16][1].

العَمَل: العين والميم واللّام أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهو عامٌّ في كلّ فعلٍ يُفعل[2]، والعمل: جهدٌ مادّيٌّ يؤدّي إلى إحداث شيء، ويعمّ أفعال القلوب والجوارح[3]، وهو: كلّ فعلٍ يكون بقصدٍ، فهو أخصّ من الفعل[4]، فالعمل لا يُقال إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرِنَ بالعلم[5].

الصُّنْع: عمل الشّيء صنعًا؛ أيّ: بحِذْقٍ[6]، والصُّنّاع: الّذين يعملون بأيديهم[7]، والصُّنع: إجادة الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فِعلٍ صُنْعًا، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسب إليها الفعل، ولا يُقال: (صنعٌ) إلّا للحاذق المُجيد[8].

الجعل: التّهيئة والصُّنع، وتصيير الشّيء من حالةٍ إلى حالة[9]، ويتصرّف الفعل (جعل) على خمسة أوجه، الأوّل: يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدّى، والثّاني: يجري مجرى (أوجد) فيتعدّى إلى مفعول واحدٍ، والثّالث: في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينه، والرّابع: في تصيير الشّيء على حالة دون حالة، والخامس: الحكم بالشّيء على الشّيء حقًّا كان أو باطلًا، والرّابع والخامس من أوجه (جعل) يدخلان في معنى التّحويل والتّصيير[10].

الخلق: تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[11]؛ أيّ: إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء[12].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(7) الخليل، العين: (صنع).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (صنع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(10) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(12) الرّاغب، المفردات: (خلق).

وقد فرّق العسكريّ بين هذه الألفاظ؛ فذكر أنّ العمل إيجاد الأثر في الشّيء، يقال: فلانٌ يعمل الطِّين خزفًا، ولا يُقال يفعل ذلك؛ لأنّ فعل ذلك الشّيء هو إيجاده، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصّافات: 96] أيْ: خلقكم وخلق ما تُؤثِّرون فيه بنحتكم إيّاه أو صوغكم له، وما يقع في علاجٍ وتعبٍ واحتيال، والعمل يُطلق على عمل الرَّجل بنفسه.

والصُّنع: ترتيب العمل وإحكامه على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يُوصل إلى المُراد منه، ولذلك قيل للنّجار: صانع، ولا يُقال للتّاجر صانع؛ لأنّ النَّجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سريرٍ أو بابٍ وبالأسباب الّتي تُوصل إلى المُراد من ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتَّجر أنّه يصل إلى ما يريده من الرّبح؛ وفي الصّناعة معنى الحرفة.

والجَعْل: تغييرٌ بإيجاد الأثر في الشّيء، والعمل إيجاد الأثر في الشّيء، والجَعْل أيضًا يكون بمعنى الإحداث، وأمّا الخلق فهو: التَّقْدير[1].

ويمكن تلخيص ما يُميّز كلَّ لفظ من هذه الألفاظ بالآتي:

العمل: أخصّ من الفعل، فالعمل لا يكون إلّا بعلمٍ وعن قصدٍ وفِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، أيْ: لا يكون إلّا من عاقل.

وأمّا الفعل: فعامٌّ، إذْ قد يكون بقصدٍ أو بغير قصدٍ؛ من عاقلٍ وغير عاقلٍ، بعلمٍ أو بغير علم، كما أنّ الفِعْل: ما كان في زمَنٍ يَسيرٍ بلا تَكْرِيرٍ، والعمَل: ما تكَرَّرَ وطالَ زمَنُه واستَمَرَّ[2].

والصّنع: أخصُّ من الفعل ومن العمل، فهو ترتيب العمل وإحكامه بحذقٍ وإجادةٍ على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يُوصل إلى المُراد منه.

ويتميّز الجَعْل بمعنى التّصيير؛ أيْ: تصيير شيءٍ من شيءٍ، ومعنى التّهيئة، وكونه محصّلًا من آخر.

ويتميّز الخَلْق بمعنى: التّقدير والإبداع والأوّليّة؛ أيْ: إيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 134 - 136.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (فعل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»